جماليات التشبيه
في شعر
معن بن أوس المزني
دراسة تحليلية

د أحمد إبراهيم محمد علي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

ملخص البحث

معن بن أوس يعد من الشعراء الرواد الذين يمتلكـــون وعيـــا فنيا، وحسا مرهفا، مكنه من تشكيل التشبيه تشكيلا مبدعا يستقصى فيه أحوال المشبه ، مما يدل على وعي بحقائق الأشياء ، وعلـــم بأحوالهـــا وصفاتها مكنه من القياس، واقتناص العلاقات بينها ، وتوظيف ذلك في خدمة الأفكار وإبراز المعاني حتى كأنه يمثلها عيانا للقارئ أو الســـامع في صور مفعمة بالمشاعر والحيوية استمدت عناصرها المكونة لها من واقعه الذي عاش فيه، فاشتركت في إداركها الحواس ، وكانت بمثابـــة نافذة لمشاركة ذلك الواقع ، ومثالا للانسجام مع الموقف الذي يكون فيه، وأنموذجا للاتساق النفسي الذي ينم عن الرضا الواقعي والتفاعل معه.

وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يسعى للتدليل على ذلك .

Abstarct

Maan Ben Awes is one of the pioneer poets who possess a technical awareness and a sensitive sense that enabled him to form a metaphor in a creative form in which he investigates the conditions of the similar. This indicates the awareness of the facts of things, and the knowledge of their conditions and qualities that enabled him to measure and seize the relations between them. The meanings, even as if they represent the reader or the listener in images which are filled with emotions and vitality derived from the elements of the constituent of the reality in which he lived, shared the senses, and served as a window to share that reality, and an example of harmony with the position that is in it, and a model of psychological consistency that shows satisfaction Realistic And interact with it .

The importance of this research is that it seeks to demonstrate this .

مقدمة :

معن بن أوس من الشعراء الذين يمتلكون وعيا فنيا ، وحسا مرهفا مكنه من تشكيل التشبيه تشكيلا جيدا ، وتوظيفه في خدمة الفكرة، وإبراز المضمون ، بما يجعله من رواد هذا الباب ، خاصة وأن الشعر العربي إلا أقله راجع إلى باب الوصف، لأنه مناسب للتشبيه .

وليس من فرق بينهما إلا أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء، وذاك مجاز وتمثيل ، وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع ، لذا كان التشبيه أكثر كلامهم .

فكأن الوصف لما كان ــ في الحقيقة ــ إدراك جمالي للواقع ؛ صار أساسا لفنون الشعر العربي ، وكلما ازداد الشاعر وعيا بحقائق الأشياء المحيطة به ، وعلما بأحوالها وصفاتها، جاءت تشبيهاته مبدعة؛ لما يكون فيها من استقصاء لأحوال المشبه . وهذا ما برع فيه معن بن أوس.

ولأن التشبيه أكثر كلامهم فقد اهتم البلاغيون بوضع ضوابط لجودته ، كما ذكروا أثره في المعاني كأداة توضيحية بيانية تنويها بشأنه.

يقول عبد القاهر : "وإنما الصّنعة والحِذْق، والنظرُ الذي يَلْطُف ويَدِقّ، في أن تُجمع أعناقُ المتنافرات والمتباينات في رِبْقة، وتُعقَد بين الأجنبيّات معاقدُ نسَب وشُبْكة، وما شرُفت صنعةٌ، ولا ذُكر بالفضيلة

عملٌ، إلا لأنهما يحتاجان من دِقّة الفكر ولُطف النظر ونَفاذ الخاطر، إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما ([1])

وتشبيهات معن شاهدة على براعته في القياس ، واقتناص العلاقات بين طرفي التشبيه ، بما يؤكد على عمق معرفته بحقائق الأشياء وماهيتها .

لذا جاء هذا البحث ليؤكد على ما سبق في ظل ندرة البحوث التي تفرغت للعناية بهذا الجانب في شعره ، وكانت خطته على النحو التالي :

أولا : المقدمة .

ثانيا : التمهيد ، وعرفت فيه عن الشاعر ، نسبه ، وحياته ، بيئته ...

ثالثا : المبحث الأول ، وتناولت فيه جماليات تشبيهات القدور .

رابعا : المبحث الثاني ، وتناولت فيه جماليات تشبيهات المرأة .

خامسا : جماليات تشبيهات الحلم، والنصح والإرشاد .

سادسا : الخاتمة ، وفيها أهم نتائج البحث .

والله أسأل أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم ، وأن يغفر لوالدي، ولمشايخي ، ولكل من له علي يد ، وأن يجزيهم عني خير الجزاء ، إنه نعم المجيب .

د . أحمد إبراهيم محمد علي

---

[1] ــ أسرار البلاغة للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، ص : ١٤٨

تمهيد

معن بن أوس : هو معن بن أوس المزني من مزينة، مشـــهور بأنه من الشعراء المخضرين، توفي عام ٦٤هـــ ، وهو من الشـــعراء المجيدين الذين لا تقل منزلتهم عن منزلة معاصريه من الشعراء بشهادة معاوية بن أبي سفيان ، فقد كان يفضل مزينة في الشعر ويقول : كـــان أشعر أهل الجاهلية منهم ، وهو زهير ، وكان أشعر أهل الجاهلية منهم ، وأشعر أهل الإسلام منهم وهو : كعب بن زهير ، ومعن بن أوس .([1]) وكف بصره في أواخر أيامه .

ومن خلال شعره يمكن القول بأنه كان حليما يتصف بســـعة الصـــدر والاستقامة والنأي عن مواطن الشبهة مقدرا للأسرة ، والقبيلة .

يقول متحدثا عن أخلاقه :

لعمرك مـــا أهْوَيْت كفيِّي لريبـــةٍ	ولا حملتْني نحو فاحشة رجـــلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها	ولا دلني رأيي عليْها ولا عقْـــلي
وأعلـــم أني لـــم تصبني مصيبة	من الدهر إلا فقد أصابت فتى قبلي
ولست بمـــاشٍ ما حييت لمنكـــر	من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مـــؤثرٍ نفسي على ذي قرابة	وأُوثِر ضيفي ما أقام على أهلي ([2])

[1] ــ راجع : ألأعلام للزركلي ، ج : ٧ ص : ٢٧٣.، ومعن بـــن أوس ، حياتـــه ، شعره ، أخباره ، جمعه : كمال مصطفى ، ص : ب ، ط : ١٩٢٧ .

[2] ــ معن بن أوس ، ص : ٤٩

كما أنه كان كريما يحب إنفاق المال على أقاربه مِن ذَوِي النَّسَبِ والأَصْهارِ ويميل إلى العَطفِ عَلَيْهِم والرّفْق بِهِم وَإِنْ أَسَاءُوا إليه ، وكانت زوجه تلومه على ذلك كثيرا إلا أنه كان ثابتا على موقفه لا يتزعزع ، فيقول :

تلومُ علَى إعطائِيَ المال صِلةً ... إذا جمع المالَ البخيلُ وأعْددا

أعاذلَ بالله الذي عند بيته ... مُصَلًّى لمن وافى مُهلاً ولَبَّدا

أريني جواداً ماتَ هُزْلاً لعلَّني ... أرى ما ترينْ ، أو بخيلا تخلَّدا (١)

---

١ ــ معن بن أوس ، ص : ٤٩ .

المبحث الأول :

جماليات تشبيهات القدور .

تعد الصورة الشعرية العربية من وسائل البيان التي استعان بها الشعراء لإبراز معانيهم ، والكشف عن مراميهم بطرق متفاوتة من تشبيه ، واستعارة وكناية .

وهي عبارة عن نسيج لغوي تنتجه خصوبة خيال الشاعر من معطيات متنوعة يرتكز فيها على عالم الحس ، إلى جانب المعاني النفسية والعقلية التي يصورها في كثير من إبداعاته في صور حسية ، أو خيالية ، وبذلك تشمل الصور الحقيقة والخيالية معا بلا تفريق، بخلاف الصورة الأدبية الحديثة التي تجعل من الخيال وسيلة أساسية فيها ([1]) مُتَّهمة للصورة القديمة بالوقوف عند حدود الحسية، والشكلية ، والحرفية ، وافتقاد المشاعر،على حد صورة ابن المعتز التي جمع فيها بين الهلال والزورق .

[1] ــ ينظر : نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد العربي الحديث ، د . محمد نايل ، ص : ٤٨ ، دار المنار ، ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩ م ، والصورة في الشعر العربي ختى آخر القرن الثاني الهجري ، د . علي البطل ، ص : ٣٠ ، دار الأندلس لبنان ، ١٩٨٣ م.

أما الصورة في الشعر الحديث فإنها تتسم بالحيوية لأنها تعتمد فلسفات جمالية مختلفة تجعل من الصورة أداة تعبيرية يُعبَّر بها كما كان يعبر باللفظة . ([1])

وهو كلام غير دقيق لأن الشعر القديم ــ ومنه شعر معن بن أوس ــ ثري بالصور المفعمة بالمشاعر والحيوية، مع أن عناصرة مستمدة من واقع الشاعر وبيئته ،حيث يقول في مدح سعيد بن العاص([2]) بشدة الكرم :

---

[1] ــ ينظر الأدب وفنونه دراسة ونقد ، د .عز الدين إسماعيل ،ص : ٧٩ : ٨٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٣٤ هـ ــ ٢٠١٣ م .

[2] ــ سعيد بن العاص : سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو أحيحة: من سادات أمية في الجاهلية. يقال له :" ذو العصابة" و "ذو العمامة" كناية عن السيادة. والعرب تقول: فلان معمم، يريدون أنه مسؤول عن كل جناية يجنيها جان من عشيرته.وقيل: كان سعيد إذا اعتم لم يعتم أحد من قريش حتى ينزع عمامته، أو لم يعتم قرشي بعمامة على لونها. وهو جد سعيد بن العاص ،وفي المؤرخين من يخلط بينهما. عاش إلى ما بعد ظهور الاسلام، ومات على دين الجاهلية في السنة الثالثة من الهجرة . وأما سعيد بن العاص: ٣ – ٥٩ هـ = ٦٢٤ – ٦٧٩ م سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ابن أمية، الاموي القرشي: صحابي، من الامراء الولاة الفاتحين. ربي في حجر عمر بن الخطاب. وولاه عثمان الكوفة وهو شاب، فلما بلغها خطب في أهلها، فنسبهم إلى الشقاق والخلاف، فشكوه إلى عثمان، فاستدعاه إلى المدينة، فأقام فيها إل أن كانت الثورة عليه، فدافع سعيد عنه وقاتل دونه إلى أن قتل عثمان، فخرج إلى مكة، فأقام إلى أن ولي معاوية الخلافة، فعهد إليه بولاية المدينة، فتولاها إلى أن مات. وكان قويا، فيه تجبر وشدة، سخيا، فصيحا.وما زالت آثار قصره في المدينة ==

١ ـ أخـــو شتَـوات لا تـزال قـدوره يُحَل على أرجـائها ثـم يُرْحـل

٢ ـ إذا ما انتحـاها المرملون رأيتـها لوشْكِ قِراها وهْيَ بالجزْل تُشْعل

٣ ـ سمعتَ لها لغطا إذا ما تغطْمطـتْ كهدْر الجمال رُزَّما حين تُجْفـل

٤ ـ ترى كلَّ دهمـاءِ السُّراةِ نبيلـةٍ شُمـاخِيَّةٍ في يافـعٍ لا تُزمَّـلَ

٥ ـ ترى الباذل الكَوْماء فيها بأسْرها مُـقبَّضةً في قـعْرها لا تحـلْحلُ

٦ ـ كأن الكُهُول الشُّمْطَ في حَجراتِها تغـاطَسُ في تيَّارهـا حين تحْفِلُ

٧ ـ إذا التطمت أمـواجُها فكأنهـا عـوائدُ دُهْـمٌ في المَحَلَّـةُ ثُيَّـلُ

٨ ـ إذا احْتفَلَـتْ أوْشازُها فكأنما يُزَعْزِها من شـدة الغلْيِ أفْكَـلُ

٩ ـ فتلك قـدور لا تزال مقيمـةً لمن نابها فيها معـاشٌ ومأكـل (١)

فهو يصور القدور في صور متعددة قامت على التفصيل والتحليل، واستقصاء أحوال المشبه ، بما ينبئ عن مهارته وقدرته علـي إبـراز المعاني بعد مراجعة النظر، وإدارة الفكر في المشبه حتى تَمكُّنِـه مـن إخراج صورة مفعمة بالحيوية والنشاط ، تشترك في إدراكها الحـواس، وتتعاون في تشكيلها عناصر كثيرة من الطبيعة، منها: الخشب الجزل ، والنار، وأصوات الجمال ، وألوانها ، والأمواج وأصواتها ، والريـاح ،

==

شاخصة إلى اليوم. قيل: توفي سنة ٥٣ هـ . الأعلام للزركلي : ج : ٣ ، ص : ٩٦ .

[١] ـ معن بن أوس . حياته . شعره أخباره جمعه : كمال مصطفى ، مطبعة النهضة بشارع عبدالعزيز . مصر ، الطبعة الأولى ١٩٢٧ م .

والعوائذ الدهم ، وهو ما ينبئ عن خصوبة خياله، وسعة إدراكه، وقدرته على استخدام العناصر المحيطة به في تشكيل الصور .

وقد تعاونت صور جزئية كثيرة لتكون بمثابة لبنات في بناء تلك اللوحة الكبيرة ، وأول ما يطالعنا منها في البيت الأول :

١ ـ أخو شتَوات لا تزال قدوره يُحَل على أرجائها ثم يُرْحل

الكنايةُ في قولة :" أخو شتَوات : فالعرب تكنى بالشتوات عن المجاعات والشدائد والأزمات ، لأنها أكثر ما تكون في زمن الشتاء ، حيث تضيق حال الأعراب نتيجة اعتمادهم على المواسم، وهم يكنون عن كرم الممدوح بأن يجعلوه منزلا للأضياف والطارقين ، أو أنه أخو شتوات ، أو أنه كثيرالرماد ، كما يكنون عن الشجاعة بقولهم أخو حرب ، ويدلل على صفة الكرم بقوله: لا تزال قدوره .. يُحَل على أرجائها ثم يُرْحل باستخدامه الفعل " زال " منفيا بلا ليفيد دوام واستمرارية حلول الأضياف في أرجائها ونواحيها ثم رحيلهم ، لأن :"زال "يقتضي معنى النفي، و"لا" تقتضي النفي أيضا ، والنفيان إذا اجتمعا اقتضيا الإثبات .

وتأمل كيف بني الفعلين : "يُحل" ، و"يُرحل" للمفعول ليكون أدل على كرمه وأبين ، من جهة أنه لا يخص به فئة معينة معروفة من الناس، أو أنهم يأتون دون دعوة ، وينصرفون بإرادتهم ، أو أنهم مجهولون بالنسبة له، فهو يكرمهم لأجل أن الكرم طبع فيه وسجية ، وكأن غرض الشاعر وغايته من بناء الفعل على هذه الصورة أن تتوفر العناية وتنصرف إلى إيقاع الفعل على المفعول، فيعلم أنه كان على أرجائها حلول ورحيل .

ثم إنه جعلها قدورا كثيرة ، وجعل لها أرجاء ونواحيَ بما يستلزم كثرة الطعام ، وبالتالي كثرة الضيوف .

٢ ـ إذا ما انتحاها المرملون رأيتها لوشْكِ قِراها وهْيَ بالجزْلِ تُشْعَل (١)

يقول : إن تلك القدور قَرِيَّةٌ لمن يقصدها ممن أرمل عامهم بقلة المطر، وندرة المرعى بدليل أنك تراها تسرع في إنضاج الطعام والنار تُشعل تحتها بالغليظ اليابس من الحطب وهو ما يدل على شدتها ، لأن ناره أشد، وأصفى، وأدوم .

وقد دلت "إذا المفاجأة" والفعل الماضي " انتحا "، و" رأى " عَلَى سُرْعَةِ إنضاج الطعام مع أن قصد المرملين أرجاءها كان مفاجئا ، بما يشير إلى استعداد الممدوح لاستقبال الضيف في كل وقت وعلى كل حال، كما أن التعبير بالفعل المضارع " تُشْعَلَ " بما يفيده من التجدد والحدوث إلى جانب وجود من يزاول تزكية النار حتى تظل ملتهبة متوقدة ، فيشتد غليان القدور .

---

١ ـ "انتحاها" : قصدها . "المرملون" : عامٌ أَرْمَل قليل المطر والنفع والخير وسَنَة رَمْلاء كذلك والمرملون من أَصابهم رَمَلٌ من مطر أَي قليلٌ . "وشْك": الوَشْك : السُّرعَةُ، وأَوْشَكَ: أَسْرَعَ . "بالجزْل" : الحَطَب اليابس وقيل الغَليظ وقيل ما عَظُم من الحَطَب ويَبِس .

٣ ـ سمعتَ لها لغطا إذا ما تغطْمطتْ كهدْر الجمال رُزَّما حين تُجْفل (١)

وهو يشبه ما تصدره القدور من لغط وجلبة ــ عند شدة غليانها فيسمع لها غطمطة بسبب قوة النار تحتها ــ بأصوات الإبل عندما ترنِّم أولادها ، ترددها في حناجرها وحلوقها ولا تفتح به أفواهها ، يكون من غير شقشقة ولا تصويت ، تصدره إذا أُجْفِلت وطردت عن مكانها ، وهو دون الحنين . فالحَنِينُ أشدُّ من الرَّزمَة ، وهي أصوات تدعو حاسة السمع إلى التقاطها، والتواصل مع إيقاعها الذي تكون بفعل التكرار:(غَطْ. مَطْ .غَطْ .مَطْ).

يكمن الجمال ــ هنا ــ في أن الشاعر يقدم صورة سمعية رائعة عبر تشبيه واقعي استمد عناصره المكونة له من واقعه الذي عاش فيه، فصار نافذة لمشاركة ذلك الواقع ، ومثالا للانسجام مع الموقف الذي كان فيه ، وأنموذجا للاتساق النفسي الذي ينم عن الرضا الواقعي والتفاعل معه .

---

١ ــ "اللَّغْطُ": الصَّوْتُ والجَلَبَة ،وقال الكِسَائِيُّ: سَمِعْتُ لَغْطاً، ولَغَطاً . أو: أَصْوَاتٌ مُبْهَمَةٌ لا تُفْهَم . "غطمط "٠الغَطْمَطَةُ : اضْطِرابُ الأَمْواج ، وبحرغُطامِطٌ ،غَطَوْمَطٌ وغَطْمَطِيطٌ :عظيمٌ كثيرالأَمواجِ، غَطْمَطَتِ القِدْر، وتغَطْمَطَت اشْتَدَّ غَلَيانُها،والمُغطْمِطةُ القِدْر الشديدةُ الغَلَيانِ . " كهدْر الجمال ": هَدَرَ البعيرُ يَهْدِر هَدَرَاً، وهَديراً وهُدوراً، وكذلك هَدَّرَ تَهْدِيراً، إذا كرَّرَ، وقيل : صوَّتَ في غَيْرِ شِقْشِقَةٍ ، وفي الصّحاح : ردَّدَ صَوْتَه في حَنْجَرَتِه . " رُزَّما " : والرَّزَمَةُ ، مُحَرّكة : ضَرْبٌ من حَنِين النَّاقَة ، وذلك إذا رَئِمت ولدَها تُخْرِجُه من حَلْقِها لا تَفْتَح به فَاهَا كما في الصّحاح ، وقيل : هو دُونَ الحَنِين ، والحَنِينُ أشدُّ من الرَّزمَة ." تُجْفل ": أي تُنَفَّر، يقال: جَفَل الظَّليمُ يَجْفُل ويَجْفِلُ جُفُولاً وأَجْفَل ذهب في الأَرض وأَسرع .

ولم تكن صورة أخرى لتنهض بهذا المعنى، أو تؤدي الغرض مثل هذه الصورة ، مما حدا به إلى تحميل الجرس الداخلي مهمة أدائها ، وهو واضح من تكرارحرف الطاء مع التاء وهما من الحروف الشديدة القوية التي يمتنع مدّ الصوت معها([1]) ليتناغم مع لَغَطِ القدور وغطْمَطَتِها عند شدة الغليان .

وهو ما يبرز قدرة الشاعر على توظيف الأداء الصوتي للغة توظيفا جيدا في خدمة المعنى وتحقيق الغرض إلى جانب التشبيه.

٤ ـ ترى كلَّ دهماءِ السَّراةِ نبيلةٍ شُماخِيَّةٍ في يافعٍ لا تُزَمَّلَ ([2])

ولئلا يُظَن أن تلك القدور ضعيفة لا تتحمل شدة نار الجزل ، وصَفَها بعدة أوصاف راعى فيها: لونها ، ومكانها ، وصناعتها ، وحجمها ، وارتفاعها .

---

[1] ـ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي المتوفى : ٧٤٩هـ ،شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر ، ج : ١ ، ص :١١٠ ، دار الفكر العربي ، الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م .

[2] ـ " دهماءِ" الدُّهْمة لون شبيه بلون الرماد وهو دون السواد ، أو هو نحو الصفرة ودون السواد ،وحديقةٌ دَهْماءُ مُدْهامَّةٌ خضراء تَضْرِب إلى السواد من نَعْمَتِها وريِّها . " السَّراةِ " : جَبَلٌ أَوَّلَهُ قَرِيبٌ مِن عَرَفات ويَمْتَدُّ إلى حَدِّ نَجْران اليَمَنِ ، وهو جَبَلُ الأَزْدِ . " نبيلةٍ" : النَّبالَةْ حُسنِ الخَلْق ، ويعني بها ـ هنا ـ دقة الصناعة وجودتها ." شُماخِيَّةٍ" : الشَّوامخُ: الشواهق، وجبل شامخٌ وشَمَّاخٌ: طويل في السماء . " يافعٍ" :كل شيء مُرْتَفِعٍ فهو يَفاعٌ ، وقيل: كلُّ مرتفِعٍ يافِعٌ ." تُزَمَّلَ" : اسْمُ مفعول مِنْ تَزَمَّلَ، إِذَا تَلَفَّفَ بِثَوْبِهِ .

فذكر أنها دهماء ، بسبب توالي النيران تحتها ، والـدَّهْماء : مـا اشتدت وُرْقَتُها حتى ذهب بياضها ، وكل شيء كان بذلك اللـون فهـو أورق ، والدهمة لون شبيه بلون الرماد ، فإن زاد على ذلك حتى اشـتد السواد فهو : جَوْن ، وقيل : إن الدُّهْمة : نحو الصفرة إلا أنه أقلُّ سَواداً .

وأميل إلى تفسير دهمة القدور بأنها لون نحو الصفرة ودون السواد ، لأنها كانت تصنع من النحاس في ذلك الوقت، وأما الحديـد الأبـيض فكانت تصنع منه السيوف ، و يؤيد ذلك أنهم يقولون شاة دهمـاء : إذا كانت حمراء خَالِصة الحُمْرَة .

ثم إن تلك القدور باتت معروفة مشهورة بنسبتها ، وإضافتها لجبل الأزد ، ويسمى جبل السَّراة ، وأن قولهم:" دهماءِ السَّراةِ " أصبح علَمًـا لها لا ينصرف لغيرها، وهو ما يفسر كثرة انتحاء المـرملين أرجاءهـا وبناءَ الفعلين " يُحَلُّ ، ويُرْحلُ " ــ في البيت الثاني ــ للمفعول على نحو ما ذكرت .

وهي قدور نبيلة بَيِّنة النَّبالة قد صنعت بدقة وإحكام ، كمـا أنهـا: شامخة مرتفعة قعيرة، ومشرفة ، وذلك أدعى لرؤيتها ، فيكثر قاصدوها، ولذا نفى تزميلها في نهاية البيت ، بقوله": لا تُزمَّلَ " وهو اسم مفعـول مُشْتَقٌّ مِنَ "الزَّمْلِ" ــ بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ ــ وَهُوَ الْإِخْفَاءُ .

أي أن هذه القدور لا يمكن تزميلها لضـخامتها ، وارتفاعهـا ، وكونها مشرفة ، أو أن صاحبها القائمَ عليها لا يقوم هو بتزميلهـا ، أو أن نفي التزميل كناية عن ثقل وزنها بسبب غلظة معدنها مـن قـولهم: تزمل فلان في بيته إذا كان لا ينهض من مكانه .

٥ ـ ترى الباذل الكَوْماء فيها بأسْرها مُقبَّضةً في قعْرها لا تحلْحلُ (١)

والقدور إذا كانت على ما وصف في البيت السابق من الضخامة، فإنك ترى فيها الناقة الضخمة ذات السَّنَامِ العظيم الطَّوِيلَ ، وهي التي طعنت في السنة التاسعة ، قد وُضعت في القدور برمتها وجميعها مجتمعة في عمقه وأقصاه لا تحلحل ولا تتحرك بسبب أنها وضعت بأسرها فيه .

ثم يصور في هذا البيت قطع السنام الكبيرة التي تتحرك في نواحي القدر وتتَقَامَس فيه تطفو مرة وتنغمس أخرى بفعل حركة ماء القدر الناشئة عن شدة غليانه، وطبيعة أنسجتها وكثافتها التي تجعلها أخف وزنا في الماء اللحم ، يصورها برؤوس شيوخ تغاطسوا في ماء وتمالقوا فتظهرتارة وتغوص أخرى . والكهول الشُّمْط هم الذين اختمرت رؤوسهم بالبياض فصارت شميطا .

فيقول :

٦ـ كأن الكُهُول الشُّمْطَ في حَجراتِها تغاطَسُ في تيَّارها حين تحْفِلُ (٢)

---

[١] ــ "الباذل" : الناقة التي دخلت في الستة التاسعة . "الكَوْماء" : النَّاقَةُ العَظِيمَةُ السَّنَامِ . "بأسْرها ": بِقدْره ، يَعْنِي جَميعه . " مُقبَّضةً " : انقبض الشَّيْءُ : ضدُّ انْبَسَطَ ،والمُتَقَبِّضُ ، والمُنْقَبِض : المُجْتَمِعُ ، وتَقَبَّضَ : تَجَمَّعَ . وانْقَبَضَ الشَّيْءُ : صارَ مَقْبوضاً ." تحلْحلُ" : حَلْحَلَهُم : أزالَهم عن مَواضِعِهم وأزْعَجَهم عنها وحَرَّكَهُم .

[٢] ــ " الكُهُول" : الكَهْلُ الرجل إذا وَخَطه الشيب . " الشُّمْطَ ": كل لونين اختلطا فهما شَمِيطٌ ،وكان أَبو عمرو بن العَلاء يقول لأَصحابه اشْمِطُوا أَي خذوا مرّةً في قرآن ومرة في حديث ومرة في غريب ومرة في شِعر ومرّة في لغة أَي خُوضُوا . وقِذْرٌ ==

وهوتشبيه بني على استعارة رؤوس الكهول الشُّمْط لقطع شحم السنام الكبيرة وقد اكتهل لونها بسبب إضافة المُشَهِّيَات من تابل وأصباغ وغيرهما إلى القدور.

والتعبير بقوله :" حَجراتِها " يوحي باتساع القدر وعِظَمها لأن الحَجَرات معناها: النواحي ، كما ،أنه جعل لها تيارا ــ وهو أعالي الموج ــ والقدور تحفل بملء جانبيها .

التشبيه ــ هنا ــ يصف حركة صفحة الحَساء وقد أفعمت بها القدور حال شدة غليانها فيكون لها ما يشبه أعالى الموج ورؤسه بما في كلمة أعالي من مراعاة مقدار ارتفاع تيار الحساء بفعل الغليان وحركة قطع السنام بداخلها واتجاه تلك الحركة ، ولونها الذي أصبح مكتهلا بسبب ما أضيف للحساء من مشهيات.

ملاحظة الحركة وما يصاحبها من لون ومقدار، ووصفهما بهذه الدقة يعده البلاغيون من بديع التشبيهات وجليلها ، كما أن التقاط حركة قطع السنام ، وحركة الحساء وهي جادة في اضطرابها داخل القدور ، ثم تصويرَها دليل وعي ومقدرة ، وقوة ملاحظة ، لأن إدارك صفة الأشياء وهيئاتها ومقاديرَها ، وألوانَها حال ثباتها شيء ، وإدراك ذلك كله حال حركتها شيء آخر .

==

تسَعُ شاةً بشَمْطِها وأَشماطِها أَي بتابَلِها . " حَجراتِها ": نواحيها وجوانبها . " تغاطَسُ " غَطَسَ في الماءِ يَغْطِس ، مِن حَدِّ ضَرَبَ : غَمَسَ وانْغَمَسَ . " تيَّارها" : التيار : أعالي الموج . " تحْفِلُ" : حَفَلَ الوادِي بالسَّيلِ : جاء بِمِلءِ جَنْبَيه .

وقد أشار الشيخ عبد القاهر إلى ذلك بقوله:" اعلم أن مما يزدادُ به التشبيهُ دقّةً وسِحْرَاً، أن يجيء في الهيئات التي تقع على الحركات، والهيئةُ المقصودة في التَّشبيه على وجهين أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما، والثاني أن تُجرَّدَ هيئةُ الحركة حتى لا يُراد غيرها"([1])

ويكمن الجمال هنا فيما تعكسه تلك الصورة من من جو نفسي مفعم بالمرح والسرور ، والدعوة إلى تناسي التعب والمشقة ، والتغافل عن الهموم ، وإراحة العقل من جدة وعناء الفكر مدة الإقامة في أرجاء تلك القدور ليستأنف قاصدوها بعد ذلك رحلتهم ، وقد تزودوا ــ فوق ما يعاش به ــ بمتعة روحيه، وفسحة نفسية تهون عليهم مغالبة الإرْمال ومشقة التَّرحال.

ثم إنه يضيف إلى ما سبق من ملاحظة الحركة بعدا إيقاعيا آخر لتلك الصورة السمعية الناشئة من شدة غليان القدر، بناه على استعارة التطام الأمواج واضطرابها وضرب بعضها بعضا وما يصاحب ذلك من أصوات ، لالتطام ما ينشأ من ارتفاع تيار الحساء مما يشبه أعالي الأمواج ورؤوسها حال شدة غليان القدور وما يصحب ذلك من لغط، وغطمطة تشبه أصوات الإبل عندما ترنم أولادها ، ترددها في حناجرها وحلوقها من غير شقشقة ولا تصويت ولا تفتح به أفواهها .

[1] ــ أسرار البلاغة للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، نشر دار المدني ، جدة ، السعودية ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١ م .

وذلك في قوله :

٧ ـ إذا التطمت أمواجُها فكأنها عوائذُ دُهْمٌ في المَحَلَّةِ قُيَّلُ (١)

وبعد أن أصبح للقدور بهذه الاستعارة موجا يضرب بعضه بعضا ، ويلتطم بعضه ببعض شبهها بحركة العوائذ الحَدِيثَات النِّتَاجِ مِن الظِّبَاءِ والإبلِ والخَيْلِ إذا كانت مذعوقةً ذكيّة الفُؤاد مُبالَغا في غِذائها عندما تُقَيَّل في محلتها ،أي: تُسْقى القيْلُ وسط النهار لأنها تكون مهيافة، سريعة العطش فتقبل على القَيْلِ متلهفة مسرعة فرحة ، وهي تتنزَّى ، أي: تّثِبُ لأن حركتها تكون نَزْواً، أي: وثْباً في غير اتزان بمحلتها، فيلتطم بعضها ببعض إذا كانت أعدادها كبيرة.

صورة العوائذ الدهم ــ هنا ــ وهي تثب في غير ارتفاع كبير وتهبط في سرعة تسر الناظر إليها ، لأن ملوك العوذ الدُّهْمُ منها ، كما أنها من الصور المبشرة بالخير والنماء والسعة .

وتبدو سمات التشبيه ــ هنا ــ في قيامه على الصورة الحركية التي انبثقت من تفاعل الشاعر مع الموقف، من ملاحظة دقيقة لحركة الحساء التي تدل بالضرورة على السرعة في إنضاج الطعام بما يستلزم إثبات الكرم للممدوح ، وشدةِ عنايته وتشمره لقدوم الضيف ، كما أنه ناطق ببراعة الشاعر، ونبوغه في هذا الباب .

---

١ ــ " التطمت": الْتَطَمَتِ الأَمْوَاجُ : ضَرَبَ بَعضُها بَعْضًا واضطربت . " عوائذُ" العُوذُ ــ بالضمّ ــ : الحَدِيثَاتُ النِّتَاجِ مِن الظِّبَاءِ والإبلِ والخَيْلِ. " دُهْمٌ " : لونها أسود . "المَحَلَّةُ ". " قُيَّلُ" : وَتَقَيَّلَ : نامَ فيه أي نصفَ النهار .

ثم يقول متابعا تصوير القدور زعزَتها عند احتفال أوْشازها :

٨ ـ إذا احْتفَلتْ أوْشازُها فكأنما يُزَعْزِها من شدة الغلْيِ أفْكَلُ

٩ـ فتلك قـــدور لا تزال مقيمةً لمن نابها فيها معاشٌ ومأكل (١)

والمعنى أن تلك القدور إذا ارتفعت غلاظ اللحم فيهـــا بفعـــل شـــدة الغليان فإنها رغم ضخامتها ، وامتلائها فإنها تتزعزع كأنمـــا تريـــد أن تقتلع من مكانها ، وقد شبه الشاعر تلـــك الحركـــة " الزعزعـــة " بحركتها وقد أصابتها رعدة قوية بسبب شدة البرد .

وجمال تشبيه حركة اهتزاز القدور وزعزعتها بفعل شـــدة الغليـــان بتخيل حالها وقد أصابها برد شديد فهو يزعزها ويحركها حركة شـــديدة يكمن في ايحائه بدوام الدفء الذي يعم أرجاء تلك القدور ويفيض منها، وكأن تلك الرعدة التي تصيب الإنسان من شدة برد تلك المناطق الجبلية أو الإحساس بالبرد بصفة عامة يصبح مجرد ذكرى في وعي من قصدها وانتحاها يَسُوغُ للشاعر اقتناصها لتمثيل زعزة القدور .

كما يكمن ــ أيضا ــ في جمعه بين أمرين لا يجتمعان أصلا، همـــا: حرارة القدور فوق النار و البرودة الشديدة التي تسببت فـــي إصـــابتها برعدة قوية ، بما يكشف عن خصوبة الخيال في الصورة .

---

١ ــ " احْتفَلتْ": بانَت وظهرَت ." أوْشازُها" : الأَوشازُ من الأُمور : غَلْظُها واحِـــدُها :وَشَزٌ ." أفْكَلُ":: الرَّعْدَةُ تَعلو الإنسانَ، تكونُ من البردِ والخوفِ، ولا فِعلَ له ." نابها": وانْتابَ الرجلُ القومَ انْتياباً إِذا قصَدَهم وأَتاهم مَرَّةً بعد مَرَّة .

ثم يشيرفي النهاية إليها باسم الإشـــارة " تلـــك " وهـــو موضـــوع للبعيد([1]) لإفادة التعظيم ، وأما تنكير "قدور" فهو للتكثير ، والتعبير باسم الفاعل "مقيمة" للثبوت والدوام ، وأما التعبير بالفعل الماضي :" نابهـــا " فلتحقق العودة إليها مرة بعد مرة ،بما يعني أنهـــا مقصـــدا للمـــرملين ومنابا .

كما أنه لا يخلو من الإشارة إلى رضا من انتحاها أول مرة عما وجد في أرجائها من كرم وحفاوة ، وإلا لما ناب إليها مرة بعد مـــرة ليجـــد معاشا ومأكلا أي : كل ما به عيش الإنسان من طعام، وشراب ، ومبيت، ورعاية دابة الضيف التي بها بلاغه .

[1] ـــ " لا سبيل للدلالة على أن المشار إليه بعيد إلا بزيادة حرفين فـــى آخـــر اســـم الإشارة، هما: لام فى آخره تسمى: "لام البعد" يليها وجوبا.كاف الخطاب الحرفية حتما " .النحو الوافي لعباس حسن ، المتوفى : ١٣٩٨هـــ ، ج:١، ص : ٣٢٥ ،نشر : دار المعارف ،الطبعة : الطبعة الخامسة عشرة .

المبحث الثاني

جماليات تشبيهات المرأة .

على عادة الشعراء العرب ــ في التغــزل بمحبوبــاتهن ، ووصــف محاسنهن ــ يجعل معن بن أوس محبوبته : نُعْماً هي مصدر الســعادة والسرور والبهجة في حياته وفي حيه مستخدما ما يفيض بتلك المعاني من مفردات اللغة فيقول :

وفي الحي نُعْمٌ قُرَّةُ العين والهوى

وأحــــسن من يمشي على قدم نُعْــم (١)

وكانت لهــذا القلــب نعم زمانــة

خبــالاً وسُــــقْــما لا يعادلــه سُقْــم (٢)

منعَّمةٌ لــم تُفْدَ في رِسْــلِ ثلَّــةٍ

ولــم تتجاوب حــــول كِلَّتِها البُــــهْمُ (٣)

---

١ ــ "الحَيُّ": الحي يَقَعُ على بَني أَبٍ كَثُرُوا أَو قَلُّوا ، وعلى شَعْبٍ يجمَعُ القَبائِلَ . " نُعْمٌ " اسم فتاة من بطنه كان يحبها ." قُرَّةُ ": قَرَّت عينُه تَقِرُّ قَرَّة وقُرَّةً، أي: بَرَدَتْ وانقطع بكاؤها واستحرارُها بالدمع .

٢ ــ " زمانـــــــة": الزَّمانة : الحب ." خبـــــــالاً": الخَبَل جنون أَو شبهه في القلب . " سُقْـــــم " : السُّقْمُ والسَّقَمُ : المَرَض .

٣ ــ " منعَّمةٌ " : النَّعِيمُ والنُّعْمى والنَّعْماء والنِّعْمة كله الخَفْض والدَّعةُ والمالُ . " رِسْلِ ثلَّةٍ " : الرِّسْل : الرَّخاء والخِصْب ، والثَّلَّة : جَماعة الغَنَم وأَصْوافُها قليلــةً كانــت أَو ==

فكلمة: "الحي" توحي بالنماء والخصب، وأنه حي معروف مشـــهور بذلك ، وأن تلك الفتاة كانت من بطنه معروفة مشهورة بالحسن والجمال الذي يعدم نظيره في بطون العرب وأحيائها الأخرى .

وقد أخبرعنها بقوله : " قُرَّةُ العين والهوى " فلم يجعلهـــا منبـــع سروره ، ومصدر سعادته ، وسبب برودة عينه، ومهوى فؤاده فحسب ، بل بالغ في ذلك ليجعلها عينَ الهوى، ونفس قرة العين مبالغة في تعلقه وولوعه بها ، حتى صار قلبه كلِفاً بحبها ، فعينه ما بَرَدَتْ دمعتُهـــا ولا انقطع بكاؤها ، ولا ذهب استحرارُها إلا بمطالعة حسنها ، حتى إنها لـــم تعد تطمح إلى ما فوق حسنها من حسن ، ولا إلى ما فاق جمالها مـــن جمال ، فأحسن من يمشي على قدم نُعْمُ ، فهي متفردة في ذلك الحسن لا تشاركها ولا تشبهها فيه فتاة .

وقد زاد عليه النابغة في قصيدته التي مطلعها :

بانَتْ سُعادُ ، وأمْسَى حَبلُها انجذما واحتلتِ الشَّرْعَ فالأجزاعَ من إضَما

بأن جعل للحسن كمالا ، ثم جعل محبوبته أكمل من يمشي علـــى قـــدم حسنا في قوله :

غـراءُ أكملُ منْ يمشي على قـدم حُسْنـاً وأمْلَحُ مَن حاوَرْتَـهُ الكَلِمَا (١)

==

كثيرة . " كِلَّتِها " : ستر رقيق يخاط شبه البيت ،والجمع "كِلَلٌ . " الـــبُهْمُ " : صِـــغارُ الضأن والمَعَزِ ذكورا كانت أو إناثا .

١ ــ ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص :٦١ ، الطبعـــة الثانية ، دار المعارف ، مصر

ثم يذكر شاعرنا ــ في البيت الثاني ــ أن نعما الهوى ، وأن نعما قرةَ العين كانت لقلبه خاصة ــ دون قلوب غيره من الرجال ــ زَمَانَةً ، وحبا، وعشقا وصل إلى حد الجنون أَو ما يشبهه ، حتى كأنه مُخَبَّل لا فؤَاد معه ، سقيم مبتلى بسبب ما تجشمه من ذلك الولع والهوى.

ثم يخبر ــ في البيت الثالث ــ عما تتصف به نعم فيقول : إنها منعمة ، تعيش في خَفْض ودعةٍ لم تدر ما عيش الشقاء ، ولم تجرب البؤس ، ولم تغزل يوما على عوْسَجَةٍ ، وأن تلك النعمة وذلك الخفض ليسا حديثا عهد بها، بل إن ذلك منذ نعومة أظفارها حيث إنها لم تُغْذ في " رِسْلِ ثلَّةٍ " قط ، بل نشأت في حياة ناعمة مرفهة واسعة ، لا تعرف الضيق ولا القلة في الطعام والشراب .

وكان من مظاهر تلك النعومة أنها كانت تعيش في مكان نظيف لا تتجاوب حوله ، ولا تقترب منه صغار الأغنام فتظل رائحته زكية طيبة ، كما أنها كانت تتخذ لها داخل الخيمة أو البيت " كِلَّة " أي : سترا ، يُصنع من قماش رقيق مثقب يُتوقى به البعوضَ وغيره .

ثم يتابع وصفها قائلا :

سبتْني بِعيْنيْ جُؤْزَرٍ بِخميلةٍ وجِيدٍ كجيد الرِّيم زيَّنه النَّظْم (١)

والمعنى :أنه أصبح سبيًّا لديها ، وأنها أسرتْه بعينين واسعتين اشتد بياض بياضهما، وسواد سوادهما ، وقد أحدق البياض فيهما بالسواد ،

---

١ ــ " جُؤْزَرٍ ": ولَدُ البَقَرَةِ الوَحْشِيَّةِ . " بِخميلةٍ "الخميلة :الأرض المكرِمة للنَّبات ، والرمْلة التي تُنبت الشجر ، وقيل : القطيفة السوداء .

مع وُرْقة جفونهما ، وابْيضَاض ما حواليها ، وأن ذلك السبي قد وقع له بخَمِيلة ، أي : بمكان فيه شجر كثير مجتمع ملتفٌ لا يرى فيه الشيء إذا وقع في وَسَطه ، أو في أَرض سهْلة مدْهامَّة يشبَّه نَبْتُها بخَمْل القَطِيفة لكثافته ، ونعومته ، وريِّهِ ، ونضَارتِه .

ولا تكون العين بهذا الكمال في الوصف إلا في الجآزر ، لذا استعار لعينيها عيني جُؤْزَر بجامع الحسن في كل، ثم استعار المشبه به للمشبه مبالغة في كمال تلك الصفات فيها .

وكان مما استخدمته تلك الفتاة لأسره مما تفردت به من جمال ــ إلى جانب العينين ــ عنق طويلة حسنة ، تشبه جيد الظبية البيضاء التي خلُص بياضها فلا يخالطه لون آخر، بجامع الطول والبياض في كل ، إلا أن جيد تلك الفتاة قد زين حسنه لؤلؤ منظوم بما يؤيد ما ذهب إليه من أنها كانت مترفة منعمة .

التشبيه هنا تآزر مع الاستعارة لرسم صورة بصرية يبدو فيها جانب من ملامح حسنها ، حيث العينيان واسعتان ، والعقد المنظوم يزين عنقها الأبيض الطويل مما يجعلها فتاة حواراء جيداء .

والتعبير بالمصدر بدل اسم المفعول في قوله : "زينه النَّظْم " وكان حقه أن يقول : المنظوم ، لما في التعبير بالمصدر من إشارة إلى الدقة والمهارة التي صنع بها ذلك المنظوم ، ويلزم منه أن فتاته " نعم " من اللاتي لا يتخذن من الزينة إلا أحسنها وأفخمها .

وهو أفضل من بيت امرئ القيس الذي يقول فيه :

وجيدٍ كجيدِ الرِّئم ليس بفاحشٍ إذا هي نصَّتهُ ولا بمعطَّلِ (١)

فكلاهما قد شبه جيد فتاة بجيد الريم إلا أن تشبيه معن جاءت عبارته أقصر ، كما أنه جعل جيدها مزينا بالنظم ، في حين أن امرأ القيس جعل جيد محبوبته غير معطل من الزينة ولم ينص على أن زينتها من النظم أو غيره .

والتشبيه في بيت امرئ القيس بجيد الريم مشروط بأن تحركه الفتاة ، وترفع رأسها ليبدو في طوله مشابها لطول جيد الريم، وهذا ما لم يشترطه معن في تشبيهه ، كما أن امرأ القيس قد نفى الفحش في الحسن عن جيد فتاته، أي: مما يجعله غير متجاوز القدر المحمود في الحسن ، في حين أن معنا جعل جيد " نُعْمٍ " كجيد الريم دون النص على ما يجمع جيدها وجيد الريم من صفات ليشمل بذلك الطول ، واللون وغيرهما مما يمكن أن يشتركا فيه من صفات الحسن الذي لم يضع له حدا .

وكأن حرارة انفعال معن بحسن نعم ، وشدة إعجابه بجمالها يقابله عند امرئ القيس فتور وعدم امتلاء بمعاني حسن محبوبته .

ووحْفٍ يُثنَّى في العِقاصِ كأنه عليها إذا دنَّتْ غدائرُها كرْم (٢)

---

١ ــ " نصته " : حركته . " ليس بمعطل " : أي أنها تزينه بحلي ." ليس بفاحش " : غير متجاوز القدر المحمود من الحسن .

٢ ــ " ووحْفٍ" الوحْف : الشَّعَرُ الكَثِيُر الأَسْوَدُ . "العِقاصِ " يقال :عَقَصَ شَعرَهُ يَعْقِصُهُ، عَقْصاً : ضَفَرَهُ . " كرْم " الكرْم : أشجار العنب .

ويبدو أن الفتاة لم تكتف باستخدام عينيها وجيدها في سبي شاعرنا، بل استخدمت شَعرا كثيفا أسود اللون قد أَثَّتْ أُصوله حتى كَثُرَ والْتَفَّ ، ويبدو أنها كانت تعقصه بأن تَأْخُذَ كُلَّ خُصْلَةٍ من شَعرٍ فتَلْوِيَها ، ثُمَّ تَعْقِدَهَا حَتَّى يَبْقَى فِيهَا الْتِوَاءٌ ، ثُمّ تُرْسِلَهَا ، فيكون منه المثنى في غدائر والمعقوص .

صورة الوحْفِ تلك التي استُخدِمت في أسر الشاعر شبهها شبهها في حال قرَّبت المثنى أو المجدولَ من شعرها إلى بعضه بالكرم أي :ما ذُلِّلَ من قُطُوفِهِ عِنْدَ اليَنْعِ إذا كان كثير الخير، وذلك في إحكام الجدل وكثرة عقده ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الشعر كثيفا مسترسلا .

وقد يكون المقصود بالكرْم أحد أنواع النباتات كثيرة العصارة ذات عناقيد من الأزهار الأرجوانية من درجات البنفسج ، لها أغصان طويلة متفرعة تلتصق ببعضها ، مما يعني أن الشاعر قد أضاف بعدا آخر إلى صورة شعرها فوق الكثافة وأن منه المعقوص والمجدول يتمثل في اللون الأرواجني أحدِ درجات البنفسج الذي هو لون الكرْم عند ينعه إذا كان المقصود بالكرْم العنب، أو لون عناقيد الأزهار الأرجوانية إذا كان المقصود بالكرْم ذلك النبات.

كما أن الشاعر لم يُغفل طول الشعر بل جعله طويلا مستعليا فوقها، وذلك ما يشير إليه التعبير بـ"عليها" كأنه لطوله يغطيها ويسترها ، وهو قريب من بيتي امرئ القيس اللذين وصف فيهما شعر فتاة بقوله :

وفرعٍ يغشِّي المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقنو النَّخلةِ المتعثكلِ

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العلا تضلُّ المداري في مُثنى ومرسلِ

حيث أشار إلى طوله وأنه يغطي ظهرهـــا ، وأشـــار إلـــى اللـــون ومقداره ، وأنه أسود فاحم ، وأشار إلى تعرج الشعر ومقدار ذلك التعرج في تشبيهه بقنو النخلة المتعثكل ، ثم أشار إلى كثافة الشعر في البيـــت الثاني .

فيكون بيت معن مع وجازته قد قد أبرز تلك الصفات وزاد عليها ما لاحظه من تقارب عقد المجدول منه ومقدار القرب بتشبيهه بـــالكرم إضافة إلى اللون الأرجواني .

وأقنى كحد السيف يشرب قبلها وأشْنبَ رفَّافِ الثنايا له ظلْم (١)

يتابع الشاعر فيذكر أن مما كان سببا في وقوعه أسيرا لحســـنها أنف أعلاه مرتفع ، ووسطه مُحْدَوْدَبٌ ، وفي طرفه سبوغ ، وفي وسطه نُـــتُـــوٌّ وإشراف ، وفي مِنْخَرَيْه ضيق ، وهو ما يسمى بقنا الأنف ، أو أنه لا يكون أقنى إلا إذا كان على هذا الوصف ، وذلك الحد ، ثم أضـــاف إليه وصفا أخر، وهو أن جعله كحد السيف في الدقة ، ثم جعله يشـــرب قبلها ، وفيه كناية عن رقة الشفتين ، وتناسقهما مـــع ســـبوغ الأنـــف وصغر حجمها بحيث إذا رفعت الكأس إلى فِيها ، فإنها تُدخل فيه الأنـــف مع الشفة العليا ، ولو كانت أنفها ضخمة لما استطاعت ذلك .كما يقولون : أشربت الإبل الحبال إذا أدخلت أعناقها فيها ، فكأن المادة تستعمل على

---

١ ـــ " أقنى " الأقنى : الأنف . " أشنب " الشَّنَبُ : بَرْدُ الفَـــمِ مـــع حداثـــة الأَســـنانِ وصفائها." رفَّافِ " : براق متلألئ ." كأنه ظلمة تركب متون الأسنان من شدة الصفاء. " له ظلم "

سبيل الاستعارة في إدخال شيء في شيء آخر، تقول : أشْـرَبْتُ الإبـلَ الحبالَ إذا أدخلت أعناقها فيها.

ثم يضيف إلى ما سبق من أسلحة حسنها "أشْنبَ رفَّافِ الثنايا له ظلْم " ، والشَّنَبُ : بَرْدُ الفَمِ مع حداثة الأَسنانِ وصـفائها ، وطَراءَتِهـا ونقائها، وطيب نكهتها وتفليجها ، بحيث تكون الثنايا براقة متلألئة لها " ظلْم " أي : ظلمة تركب متون الأسنان من شدة صفائها ، أو هـو مـن قولهم: أَظْلَم الثَّغْرُ إذا تَلأْلأَ عليه كالماء الرقيق من شدَّة بَرِيقه .

ثم يتابع وصفها مشيرا إلى ما يميزها ، وما تخـتص بـه دون سـائر أترابها من بطنه ، وفي حيه قائلا :

لها كفَلٌ رابٍ وساقٌ عميمةٌ وكعب علاه اللحم ليس له حجم

تصيَّدُ ألبـاب الرجال بأنْسِها ويقتلُهـم منها التـدلُّـلُ والنَّغْـم (١)

فالكفَلُ : العجُز ، ورُبُوُّه : انتفاخه، وارتفاعه ، يقال : ربا الشيء، أي : زادَ، ونَمَا، وعَلا، وارتفع . قصر تلك الصفة عليها قصر صفة على موصوف بتقديم الجار والمجرور" لها " أي: لها خاصة دون غيرها .

كما أنها تختص ــ أيضا ــ بطول ساقيها ، وتمام خلقهما ، يقال: جارية عَمِيمَةٌ وعَمَّاءُ أي: طويلة تامةُ القَوامِ والخَلْق ، ونخلةٌ عَمِيمـةٌ: طويلة ، والأعم من كل شيء : الغليظ التام .

---

١ ــ " بأنْسِها " : الأُنْسُ حديثُ النِّساءِ ومُؤانَستُهُنَّ . " التدلُّلُ " : دَلالُ المرأةِ ودلَّهـا : حُسْنُ حديثه ، وحُسْنُ مِزاحها وحسن هَيئتها . " النغم " : النَّغَمُ : مُحَرَّكَةً ، وتُسَـكَّنُ : الكَلامُ الخَفِيُّ ، ويقال: فُلانٌ حَسَنُ النَّغْمَةِ، أي: حَسَنُ الصَّوْتِ .

ومما تختص به تلك الفتاة أيضا : صغر حجم كعبيها واكتساؤهما باللحم ، والكَعْبُ : كُلّ مَفْصِلٍ للْعِظامِ . ومن الإنسانِ : ما أَشْرَفَ فوقَ رُسْغِه عندَ قَدَمِهِ ، وقيل : هوالعَظْمُ النّاشِزُ فَوْقَ القَدَمِ ، وقيل : هو العظم النّاشِزُ عند مُلْتَقَى السّاق والقَدَمِ .([1])

ولما تملكه تلك الفتاة ، من أسباب الحسن ومعالم الجمال ، فإنها تصيد ألباب الرجال بمؤانستها التي تُزيل الوحشة ، وتبث الطمأْنينة وترمي بهم في شُرُك حسنها ، تجذبهم إليها بجمال هيئتها ، وحُسْن حديثها ، فإذا أحمكت حبائلها، قتلتهم بسكينتها ، ووقارها، وروعة شمائلها ، وسحر نَغْمتها .

وتأمل التعبير بالفعل المضارع " تصيد" وما يشعر به من مزاولة الحدث فيه شيئا فشيئا مع استحضار ذلك أمام عينيك . ثم إنه جعلها تصيد ألباب الرجال ، ولب الرجل ما جُعلَ في قلبه من العَقْل، الذي هو أنفع شيء فيه ، سُمِّيَ بِه لأنّه خُلاصَةَ الإنسان ، أَو لأَنَّهُ لا يُسمَّى لباًّ إلاّ إذا خَلُصَ من الهَوَى وشوائبِ الأَوْهَام ، فيكون أَخَصُّ من العقل ، فكأن ألباب الرجال عندها قَطا الأَحْبابِ حانَ لَها وِرْدٌ وأَفْرَدَ عنها أُخْتَها الشَّرَكُ.

وهو أبلغ من قول ساعدة بن جؤَيَّة الهذليَ :

وَلو انَّها ضَحِكت فتُسمِعَ نَغْمَها رَعِشَ المَفاصِلِ صُلْبُه مُتَحنِّبُ ([2])

لأن نغم فتاته وإن أسمع الشَّيْخَ الذي انحنى صلبُه ورعِشَت مفاصله مِنَ الكِبَرِ، لشدة حسنه ، وروعة جرسه إلا أنه دون تنغم نُعْم ،

---

[1] ــ راجع تاج العروس من جواهر القاموس ، مادة : كعب .

[2] ــ ديوان الهذليين . القسم الثاني ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٩٥

لأنه لم يتجاوز حد التأثير ــ حتى وإن كان تأثيره فيمن كان حاله الانصراف عن سماع ذلك ، أو التأثر به لكبر أو شيخوخة ــ إلى حد القتل كما يفعل تنغم نعم . وهوــ أي القتل ــ ليس على حقيقته لكنه مستعار لشدة التأثير الذي يصل إلى حد الهلاك لشدة التعلق ، ودوام الفكر ، وطول السهر.

غير أن ساعدة بن جؤَيَّة الهذليَ كان أكثر إنصافا لفتاته ، وأشد غيرة عليها عندما استخدم حرف الشرط " لو"، ليضن بضحكها ويصون نغْمها فلا يُسْمِعُهُ أحد ، أما معن فقد جعلها تنغُّمَها آلة تصيد بها ألباب الرجال ، وجعلها تزاول ذلك مرة بعد مرة ، وهو ما يتنافى مع ما جبلت الفتاة بصفة عامة ، والبدوية بصفة خاصة ، كونها مصانة كاللؤلؤة في صدفها يُبذل الغالي والنفيس في خِطْبَةِ وُدَّها ، وسماع نغْمها .

لُباخِيَّةٌ عجزاءُ جم عظامها نمت في نعيم وانْمَهلَّ بها الجسم

توالدَها بِيضٌ حرائرُ كالدُّمى نواعم لا بيض قصار ولا خُثْم (١)

ثم رد ما فيها من ملاحة ونعومة وعقل ، وطول وانتصاب وحسن خلق، إلى توالدها من أمهات بيض حرائر يشبهن الصور التي يُتَنَوَّقُ في صَنْعتِها، ويُبالَغُ في تَحْسِينِها ، يتصفن بالنعومة والطول ، وانتصاب القامة ودقة الأنف، في غير خَثَمٍ ولا قصر .

ثم يصور حيرته ، وعدم قدرته على الاهتداء للصواب في شأنه مع " نعم " قائلا :

---

[١] ــ " لُباخِيَّةٌ ": طويلة عظيمة الجسم . " انْمَهلَّ " : اعتدلَ وانتصَب . " خُثْم " : الخُثْمة غِلَظ وقِصَر وتَفَرْطُحٌ .

أتهجر نعما أم تديمُ لها وصـــلاً وكمْ صَرَمَتْ نُعْـــمٌ لذي خُلَّة حبـــــلا

إذا أنت عزيْتَ الفؤاد عن الصِّبا تذكَّرْتَ منها الأنْسَ والمنطقَ الرَّسْلا

وذا أُشُـــرٍ عذْبٍ ترفُّ غـــروبه وسالفةً في طولُها جُـــــدلتْ جـــدْلا

ونحـــرا كفاثـــورِ اللَّجِينِ وناهدا وبطْنا كغِمْد السيفِ لم يدْرِ ما الحَمْلا (١)

وهو يترجم عن تلك الحيرة وعدم الاهتداء إلى الصواب في شـــأن نعم ، فلا يدري : أيهجرها ، أم يديم وصلها ؟ لأنـــه يخشـــى ــ إن أدام وصلها ــ أن تقطعه وهو أمرغير مستبعد منها فكم قطعت لذي خلة حبلا ، وكأن ذلك ديدنها .

وإن هو صبَّر فؤاده وعزاه عما به حياته من ميل وحنين وشوق إلى الهوى ، ودعاه إلى توديعها ، لأنها لن تصون حبل الوصل ، تـــذكر أنسها وطمأنينتها وحديثها المترسّل في تأنٍّ وتؤدة إليه ، تذكر أســـنانها رِقَّتَهَا وحِدَّتَهَا ، مَاءَها وظَلْمَها، أُشُورَها(٢)وصقلَها، تذكر سالفةِ شعْرِها المُرْسَلَةِ علَى خَدِّها.

والبيت الأخير فيه تشبيهين حسيين مفـــردين ، شـــبه فـــي الأول نحرها بفاثور اللجين في البياض والصـــفاء والنعومـــة والاســـتدارة ، وفاثور اللجين هو الطَّشْتَحانُ ، أَوْ الخِوَانُ يُتَّخَذُ من رُخَـــام أَو فِضَّـــة أَو

---

١ ــ نَهَدَ الثدْيُ يَنْهُد بالضم نُهُوداً إِذا انتَبَرَ وأَشْرَفَ وارتفع عن الصدر وصار له حَجْم .

٢ ــ أُشُرُ الأَسنانِ : التَّحْزِيزُ الَّذِي فيها ، وهو تَحْدِيدُ أَطرافِها يكـــونُ ذلـــك خِلْقَـــةٌ ومُسْتَعْمَلاً ، ومفرده : أُشُورٌ .

ذَهَب وأَهْلُ الشَّأْم يتَّخِذُونَه من رُخَام يُسَمُّونه الفاثُورَ وهو عِنْد العامَّة : الطَّسْتُ .

وشبه ــ في الثاني ــ بطنها بغمد السيف في الدقة والضمور والقوة كونها لم تدر ما الحمل ، وإلا فإنه يذهب بضمور بطنها ، وينشأ عنه فتور عضلاتها .

وتشبيه النحر بفاثور اللجين قد سبقه إليه حاتم الطائي في قوله :

ونحراً كفاثورِ اللُّجينِ يزينهُ توقُّدُ ياقوتٍ وشذراً منظَّما

كجمرِ الغضى هبَّتْ له بعدَ هجعةٍ من اللَّيلِ أرواحُ الصَّبا فتبسَّما (١)

وزاد عليه فزينه بياقوت متوقد ، وشذر منظم ، يشبهان في لونهما ورسمهما جمر الغضا إذا داعبته أرواح الصبا ، فتُطَيِّر منه الشرر .

صورة حاتم أكثر ثراء ، وأفرطُ جمالا ، بفضل ما تفيض به من دفء وتوهج ، وما تجمعه من ألوان تزهو بالحياة ، فهو قد جمع لنحر محبوبته الصفاء والنعومة ، و الاستدارة واختلاط اللون الأبيض بلون نار جمر الغضا، وهي معروفة بشدة الصفاء ، وتكون في حمرة مشوبة بصفرة في صفاء ، مع تطاير الشرر في لطف عندما تداعبها أرواح الصبا ، فتنثر فيها الشرر كأنه ذرات الذهب ليحكي ما يكون على نحرها المستدير في اتساع من نقاط في حجم ذلك الشرر تنبض بالحيوية والنشاط .

---

١ ــ ديوان حاتم الطائي : ص : ٢٢١ .

وهو ما فات الأعشى كذلك عندما جعل نحرها جامدا لا حياة فيه بتشبيهه بفاثور الفضة المتأنق في صنعته وتصويره ، وذلك في قوله :

لها كبدٌ ملساءُ ذاتُ أسرّةٍ وَنَحْرٌ كَفَاثُورِ الصّرِيفِ المُمَثَّلِ

وهو ــ أيضا ــ ما افتقده معن في صورته ، ويمكن القول بأن روح الجمود والبرودة تحاول أن تسري في تشبيه معن عندما تابع الأعشى ولم يبعث في صورته قدرا من الحيوية والدفء كما فعل حاتم ، خاصة وأنه قد سبق وشبه النساء بالدمى المصورة .

أما تشبيه بطنها بغمد السيف ــ وإن صوَّرَ شدة الضمور ــ فهو أشد جمودا من فاثورِ اللَّجينِ ، فوق مبالغته في ضمور كشحها وهو ما لا لعدم يتناسب وطبيعة جسد المرأة .

لذا كان عنترة ــ قبله ــ أشد توفيقا ، حين جعل بطن "عبلة " كالقماش السابري([1]) الرقيق اللين الناعم المطوي، فراعي الضمور ، والليونة والنعومة وشدة البياض ، وذلك في قوله :

وبطنٌ كطيِّ السابرية لينٌ أقبّ لطيفٌ ضامرُ الكشح أنعجُ

والقَبَبُ دِقَّةُ الخَصْر وضُمُورُ البَطْن ولحوقه ، والوصف منه للمذكر والمؤنث : أقبُّ ، وقَبَّاء . والكَشْحُ : ما بين الخاصرَة إلى الضِّلَعِ من الخَلْفِ ، والنَّعَجُ : البياض الخالص ، والوصف منه : أنعج . ونعجاء ،كأبيض وبيضاء .

[1] ــ نسبة إلى سابر بلدة في بلاد فارس قريبة من شيراز

المبحث الثالث : جماليات تشبيهات الحلم والنصح والإرشاد .

أ ـ في الحلم .

إن المتأمل في شعر معن يرى فيه خلاله ، وسماته ، وما كان يتحلى به من الحلم والشرف ، والاستقامة ، كما كان ينأى بنفسه عن مواطن الشك والريبة والتهمة ، مقدرا للأسرة والقبيلة .

يقول عن نفسه :

لعمرك ما أهْوَيْت كفيِّي لريبةٍ ولا حملتْني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليْها ولا عقْلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

ولست بماشٍ ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي

ولا مؤثرٍ نفسي على ذي قرابة وأوثِر ضيفي ما أقام على أهلي (١)

ترى الأبيات يعلو فيها صوت الفضيلة ، والأخلاق النبيلة المتمثلة في الاستقامة ، والرضا ، والإيثار .

كما أنه كان كريما يحب إنفاق المال على أقاربه مِن ذَوِي النَّسَبِ والأَصْهارِ ويميل إلى العَطفِ عَلَيْهِم والرّفْق بِهِم ، ورعَايَةِ أَحْوَالِهِم وَإِنْ بَعُدُوا عنه، أوَأَسَاءُوا إليه ، وكانت زوجه تلومه على ذلك كثيرا إلا أنه كان ثابتا على موقفه لا يتزعزع ، فيقول :

تلومُ علَى إعطائِيَ المالَ صِلةً إذا جمع المالَ البخيلُ وأعْددا

---

١ ــ معن بن أوس ، ص : ٤٩

أعاذلَ بالله الـــذي عند بيته مُصَـلًّى لمن وافى مُهلاً ولَبَّدا

أريني جواداً ماتَ هُزْلاً لعلَّني أرى ما ترينْ ، أو بخيلا تخلَّدا (١)

كما كان متصفا بالحلم وسعة الصدر، يؤثر وصـل مـن قطعـه ، والعفو عمن ظلمه، ودفع السيئة بالحسنة متحليا بما يدعو إليه كمـال الإيمان من تفويض أمر المعتدي إلى الله، فانتصـاره أشـفى للصـدره وأرسخ في النصر .

ولا شك أن تحلي الشاعرِ بهذا الخلق الداعي إلى البر بالأقربـاء والصفح عنهم مرجعه إلى ما يشيعه الإسلام في نفوس أتباعه من بـر ورحمة، ورقة وشفقة ، وتعطف ورأفة ، ورقة ومحبة، أخلاقا ، وقِيَمًـا كانت خير معين لتقليم أظفار الضغن، واستلاله من النفوس .

وقد بدا ذلك واضحا في تحلمه مع قريب له أساء إليه وتجنى عليـه فآثر الصفح عن زلاته طمعاً في إصلاحه حتى نجح وأفلح ، وقد ذكر ذلك في شعره قائلا :

وذِي رحِـمٍ قَلَّمْتُ أظْفـارَ ضِغْنِه بِحِلْمِيَ عَنْـهُ، وهُوَ لَيْسَ له حِـلْمُ

يُحـاولُ رَغْمِي لا يُحـاوِلُ غَيْرَهُ وكالْمَوتِ عِنْدِي أنْ يَعُرَّ به الـرَّغْمُ

فإنْ أعْفُ عنه أُغْضِ عَيْناً على قَذًى ولَيْسَ بالصَّفـح عن ذَنْبِـه عِلْـمُ

وإنْ أنْتَصِرْ مِنْه أكُنْ مِـثْـلَ رائِشٍ سِهامَ عَدُوٍّ يُسْتَهاضُ بِهـا العَظْـمُ

ذو الرحم هو القريب ، ويقع على كل من يجمع بينهما نسـب ، وقد بنى الشاعر كلامه على جعل الأحقاد والإحن، والضغائن والـدِّمن ،

(١) ـ معن بن أوس ، ص : ٤٩ .

سبُعا يتسم بالشراسة والعنف على سبيل الاستعارة المكنية ، ثم أضاف لازم المستعار منه وهو الأظفار إلى الضغن على وجه التخييل والادعاء، ولم يقف عند هذا الحد بل مضى في تصوير الضغائن في تلك الصورة المخيفة ، يمدها وينميها بخياله ، حتى أوهم أن للضغن أظفارا تخدش العلائق ووشائج القربى ، وأواصر المحبة ، عندما ذكر أنه قلمها ، فضلا عما تدل عليه صيغة التفعيل من المعاناة ، والمكابدة ، والمقاساة في إنجاز تقليم أظفار الضغن ، فأكد بذلك الإحساس بأن ثمة أظفار حقيقية تتسم بالشدة والصلابة .

ومع ما تحكية صيغة التقليم من معاناة إلا أنها توحي بتجذر ذلك الضغن في نفس ذي رحمه ، وأنه ضغن ثابتٌ قديم مُدَمِّنٌ للصَّدْرِ أتي عليه الدَّهْرُ ، وتوارثته الأجيال ، جل ما يمكن فعله هو تقليم أظفاره فحسب ، لا اقتلاعه ، واستلاله ، وإخماد ناره ، فتلك مراتب أخرى لا يقوى عليها إلا من تحلى بالحلم الممتد ، والصبر الصبور .

وفي الوقت الذي لا يحاول ذو رحمه ولا يروم إلا إذلال الشاعر وإخضاعه لأن نفسه لم تنْطَو إلا على الأحْقادِ ، يعد الشاعر ــ الذي أفعم قلبه حبا له ورحمة به ــ إصابة ذي رحمه بمالا يَسْتَقرُّ عَلَيْه ، أَوْ بما لاَ قِوَامَ لَهُ معه من شَدَّةٍ أو غيرها مما يغلب الرجل ويقهره بمثابة موته رجاء لدوام عزته وبقاء هيبته .

ومع ما يسببه عفو الشاعر عن ذي رحمه وترك معاقبته من ألم وأرق لا يقل عن ألم وأرق من يطبق جفنيه على قذى أصابها ، فإن خلقه ومروءته تدعوه إلى الارتقاء في مراتب العفو حتى الصفح الذي

هو تَرْكُ التَّأْنِيبِ على الذنب، وهو أَبْلَغُ من العَفْوِ، فقد يَعْفُو ولا يصفح ، وذلك كله دون علم قريبه لئلا يظن أن في إخباره امتنان عليه بذلك .

والشاعر يترجم عن اعتقاد خالص، ويكشف عن يقين جازم أن سلوكه هذا مع ذي رحمه ليس عن ضعف ، أو عدم قدرة على الانتصار لنفسه ، بل لأنه يرى أن الانتصار من ذوي الأرحام لا يهنأ به القلب ، ولا تقر به العين ، بل يحيله إلى عدو لدود يجد متعته في صناعة وإعداد وتهيئة كل ما يلحق الضرر البالغ ، والوجع الشديد بخصمه .

وقد صور ذلك في قوله :

وإِنْ أَنْتَصِرْ مِنْه أَكُنْ مِثْلَ رائِشٍ سِهامَ عَدُوٍّ يُسْتَهاضُ بِها العَظْمُ(١)

التشبيه لا يجسده في حال الانتصار من ذي رحمه في صورة عدو يريش السهام بقدر ما يكشف عن حقد دفين متغلغل في أعماق النفس يدفع إلى التفنن في إلحاق الأذى والضرر بعدوه ، وهو ما تدل عليه إراشة السهم . يقال رِشْتُ السهم أَرِيشُه أي : أَعْمَلُ لها رِيشاً ، إشارة إلى كماله واستقامته وإحكام بريه ، وقوة انطلاقه إلى هدفه، حتى إنه ليكسر العظم إن أصابه .

ولقد كان ثبات الشاعر على مبادئه ، وتمسُّكُه بدماثة أخلاقه ، وحرصُه على بقاء أواصرالمحبة ووشائج القربى متصلة واضحا من استمراره على ما هو عليه من الوَداعَة ،ووَطَاءَة الخُلُق، ورقة الحاشية، والتعطف والتحنن على ذي رحمه كما تحنو الأم على ولدها .

---

١ " يستهاض " : هاضَ الشيءَ هَيْضاً كسَره وهاضَ العظمَ يَهِيضُه هَيْضاً فانْهاضَ كسَره بعد الجُبور أَو بعدما كاد يَنْجَبِرُ

وهو يكشف بهذا التشبيه عن طبيعة تلك العواطف ، وأسباب ذلك التحنن ، وأنه فطري لا يمكن الاقتصاد منه ولا التصنع فيه، وهذا سبب تخصيصه حنو الأم دون الأب في قوله :

فما زِلْتُ في لِينِي لـــه وتَعَطُّفِـي عَلَيْهْ، كـــما تَحْـــنُو على الوَلَـــدِ الأمُّ

ولقد ظل الشاعر على هذه الحال حتى استلال الضغن منه ، وإبـــراء غل الصدر لديه ، وإطفاء نار الحرب بينهما .

يقول مبينا علة استمراره في التعطف عليه :

لأسْتَلَّ مِنْـه الضَّـــغْنَ، حتَّى اسْتَلَلْتُهُ وقَدْ كـــان ذا حِقْدٍ يَضِيقُ به الجِـــرْمُ

والتعبير بالاستلال وإيقاعه على الضغن يوحي بأنه لا يقل خطـــورة عن السيف البتار في قطع أسباب المحبة ووشائج القربى بين النـــاس لأنه صوره في صورته عن طريق الاستعارة المكنية .

كما أن اختيار الفعل المضارع "أستل" فيه إشـــارة إلـــى مزاولـــة الشاعر للفعل ، وعمله على ذلك شيئا فشيئا في رفق ، وهوادة ، وهـــو ما لايكون لو عبر بالانتزاع مثلا .

ولم يكن حلمه مقصورا على ذوي رحمه فحسب بل امتـــد واتســـع ليشمل كل من أساء إليه أملا في أن يَعْقُبَ الأســـا مســـرةٌ ، والمضـــرةَ اغتباطٌ وحبورٌ ، مستخدما التشبيه لبيان حال ذلك الـــذي يســـتمر فـــي الإساءة إليه دون ذنب جناه ، أو وزر اقتناه، قائلا :

وإنْ سُؤْتَنِي يَوْماً صَفَحْتُ إلى غدٍ لـــيُعْقِبَ يوماً مِنْـــكَ آخَرُ مُقْبِـــلُ

كَأَنَّكَ تَشْفِي مِنْـــكَ داءً مَســاءَتِي وسُخْطِي، وما في رَيْثَتِي ما تَعَجَّلُ (١)

فالشاعر لا يؤاخذه بما يظهر من مساءته ، بل يقابلها بصفح جميل عنه ، انتظارا لفيئة تظهر منه في مقتبل أمره ، فإن لم يبد منه عقبى حسنةٌ تنفي زلاته، بل تابع بين مسببات القطيعة وموجباتها بما يُظهره من الجفاء والعقوق فيما يجمع الشاعر وإياه ، فإنه ــ بذلك ــ يقطع أخا هو في مظاهرته والانطواء على مساعدته والدخول تحت طاعته في كل ما يعن له بمنزلة يده اليمنى ، فلينظر مِنْ بَعْدُ مَنْ يعتاضُ منه ، وعلى مَنْ يعول إذا صارمه الشاعر وجافاه .

وقوله : "مَساءَتِي " ، يريد مساءتَك إليَّ ، وكذلك "سُــخْطِي " يريد سُخْطَك عليَّ ، فأضافهما إلى المفعول ، والسُّخْطُ ، والسَّخَطُ : لغتان ، وهو نقيض الرضا ، ويقال: سخِطْتُه ، وتسَخَّطْتُه إذا لم ترض به .

والمعنى : أنك تستمر في إساءتك إلي وسخْطِك عليّ حتى كأن بك داء ذاك شفاؤه ، وما تطلبه من عجلتي لا تجده في بطْئي، أي: ما تقدِّره يتعجل لك من المكاشفة بيني وبينك واستثارة الحقد الكامن فيك لا يحصل لك مني متابطئا أيضا ، والمعنى أني أصابرك وأتركك على ما تستره وتكنه لي من العداوة والبغضاء .

وقوله: "لِيُعْقِبَ يوما منك آخرُ " ، يجوز أن يكون من قولهم : أعقبَ هذا ذاك ، أي: صار مكانه ، ويكون المعنى : ليصير مكان يومٍ من أيامك مذمومٍ يومٌ آخرُ منها مقبل محمود .

---

(١) ــ معن بن أوس ، ص : ٥٨ .

ويجوز أن يكون : أعقب غير متعد ويكون من أعقب الأمرُ عقبانا وعقبى ،أي : صار له عاقبةٌ ، ويرتفع "آخر" بـ : يُعقب ، ويكون قوله: " يوما منك" ظرفا ، والمعنى ليصير ما يُقبل من أمرك يوما ذا عاقبةٍ محمودة .

وحمل المعنى على تعدي الفعل : " أعقب " أحسن وأولى .

وفيه تشبيه حال هذا الرجل في الاستمرار على الإساءة والسخط علي الشاعر بحاله وقد تمكن منه داء تشفيه الإساءة المتكررة إلى الشاعر ، والسخط الدائم عليه ،([1])، فالمشبه والمشبه به حالان لشيء واحد .

وهذا اللون من التشبيه الذى يأتى فيه المشبه والمشبه به حالان لشئ واحد، ويكون فيه خبر كأن جملة أو مشتقا كثير.

ومنه على سبيل المثال قوله تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ }([2]) فالحق سبحانه يشبه حال المشركين يوم القيامة وهم يخرجون من الأحداث مسرعين بحالهم التى كانوا عليها فى الدنيا وهم يسرعون إلى الأنصاب.

فجاء خبر كأن ــ في الآية ــ جملة وليس جامداً، ومع ذلك حملها العلماء والمفسرون على التشبيه، وأعان على ذلك أن المشبه والمشبه

---

[1] ــ ينظرشرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد الحسن المرزوقي ، نشره أحمد أمين القسم الثالث الجزء الثاني ، ص : ١١٢٨ ، الطبعة الثانية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٨ هـ ـــــ ١٩٦٨ م

[2] ــ سورة المعارج : ٤٣

به حالان مختلفان لشئ واحد،وهذا الوجه هو المشهور عند جمهور العلماء، من أن "كأن للتشبيه مطلقاً"،قال به ابن جنى[1]وابن هشام[2].

وأما الكوفيون فذهبوا إلى أنها لا تكون للتشبيه، إلا إذا كان خبرها اسماً جامداً، مثل كأن زيداً أسد" أما إذا كان خبرها جملة، أو شبهها، أو مشتقاً، فهى للظن والحسبان، مثل قولك: "كأن زيداً يقوم أو قائم أو عندك"[3].

وقد حكى سعد الدين رأى الزجاج وهو تابع فيه للكوفيين، وعلل ذلك بأن الخبر "فى المعنى هو المشبه به، والشئ لا يشبه بنفسه" ثم ذكر رأى الجمهور، ورأى أن الحق أنها تأتى للشك سواء كان الخبر مشتقاً أو جامداً، وذلك عند الظن بثبوت الخبر من غير قصد إلى التشبيه نحو "كأن زيداً أخوك"، وكأنه قد فعل كنا، قال: وهذا كثير فى كلام المولدين"[4].

وحكاه أيضاً العلامة جلال الدين السيوطى عند تحقيقه فى قول الحسن البصرى: "كأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل" فيقول: فأما معنى "كأن" فاختلف فيه على قولين:

---

[1] ــ الخصائص جـ١، ص ٣١٧.

[2] ــ مغنى اللبيب لابن هشام جـ١ ، ص١٩٢.

[3] ــ راجع مغنى اللبيب جـ١ ص ١٩٢ وعروس الأفراح جـ٣ ص٣٩٢.

[4] ــ راجع المطول ص ٣٢٨.

أحدهما: للكوفيين: زعموا أنها حرف تقريب وليس فيها معنى التشبيه، إذا المعنى على التقريب: زوال الدنيا وتقريب وجود الآخرة، وجعلوا من ذلك قولهم: كأنك بالشتاء مقبل" وكأنك بالفرج آت٠

والثانى للبصريين: زعموا أنها حرف تشبيه مثلها فى قولك كأن زيداً أسد، ولم يثبتوا مجيئها للتقريب أصلاً٠

والمعنى: كأن حالك فى الدنيا حالُ من لم يكن فيها، وكأن حالك فى الآخرة حالُ من لم يزل بها، فالمشبه والمشبه به حالان، لا الشخص والفعل الذى هو جنس .

وإيضاح هذا، أن الدنيا لما كانت إلى اضمحلال وزوال، كان وجود الشخص فيها كلا وجود، وأن الآخرة لما كانت إلى بقاء ودوام، كان الشخص كأنه لم يزل فيها، ثم يذكر رأيه قائلا: ولا شك أن المعنى المشهور "لكأن" هو التشبيه، فمهما أمكن الحمل عليه لا ينبغى العدول عنه"([1])

لذا فحمل البيت على التشبيه أولى لأنه أوفى بحق المعنى الذي يرمي إليه الشاعر، حيث يجعل الميل إلى الإساءة ، والاستمرار عليها ،وعدم القدرة على صيانة اللسان مرضا ، ويجعل التنفيس عن ذلك الميل وإيقاع الإساءة بالفعل دواء .

[1] ــ الأشباه والنظائر فى النمو جـ٤ ص ٧٩ للعلامة جلال الدين السيوطى ط١ ١٤٠٥هـ ١٩٨٤ دار الكتب العلمية بيروت، لبنان٠

ب ـ في النصح والإرشاد

من الخلال التي امتاز بها معن : إخلاصه وجرأتــه فــي النصــح والإرشاد والتوجيه ، انطلاقا من إرادته الخير للمنصوح ، لأنه لم يكــن ينصح إلا بالنافع المنقذ من الأضرار، وقد يصحب ذلك زجر أو تخويــف إلا أنه ينطوي على حنو وشفقة .

ومن نصحه الذي استخدم فيه التشبيه لتوضيح مــراده وتجســيد توجهيه والإقناع بالدليل والحجة قوله :

فيأيها المرء الذي ليس صامتا ولا ناطقا إن قال فصلا ولا عدْلا

إذا قلت فاعلم ما تقول ولا تكن كحاطب ليل يجمع الدَّقَّ والجزلا (١)

" فيأيها": "يا" أكثر حروف النداء استعمالاً، فهو أصل حروف النداء ولذا فإنه ينادى به القريب والبعيد على السواء قال الرضي، قــال ابــن الحاجب:حروف النداء، يا: أعمها، وأيا، وهيا، للبعيد، وأي ، والهمــزة للقريب، قال الرضي في شرح الكافية (٢): ...فيا أعمها، أي ينادى بهــا القريب والبعيد على السواء ، وأن دعوى المجاز في أحدهما، أو التأويل يكون على خلاف الأصل ، وهو يرجح بذلك رأي ابن الحاجب ويرد على الزمخشري ، حيث ذكر ــ في الكشاف ــ إنها لنداء البعيد فقط قــال: " و"يا" حرف وضع في أصله لنداء البعيد صوت يهتف به الرجــل بمــن يناديه ،وأما نداء القريب فله "أي " و"الهمزة " ، ثم استعمل في منــاداة

---

١ ــ " الدَقُّ " والدِّقُّ كل شيء دَقَّ وصغُر . " الجزل " : الجَزْل الحَطَب اليابس وقيــل الغَلِيظ وقيل ما عَظُم من الحَطَب ويَبِس .

٢ ــ : راجع شرح الكافية للرضي ، ج : ٤ ، ص : ٤٢٥ .

من سها وغفل ــ وإن قرب ــ تنزيلا له منزلة من بعد ، فإذا نودي بــه القريب المخاطب ، فذلك للتأكيد المؤذن بان الخطاب الذي يتلوه معنِيٌّ به جدا " ([1])

و" أيٌّ " في الأصل نكرة تدل على فرد من جنس اسم يتصــل بهــا بطريق الإضافة ، نحو أيُّ رجل أو بطريق الإبدال كما ــ هنا ــ واختصر اسم الإشارة فبقيت "هَا" التنبيهية ، وحذف اسم الإشارة :"ذا "، فأصــل التعبير : يأ أيهذا المرء ، فكأن المنادى ــ هنا ــ مجهول ، إلا أن التعبير باسم الموصول الدال على حالة ذلك المرء من كونه لــيس صــامتا ولا ناطقا بفصل أو عدل من القول جعله حاضرا بذاته.

وايثار الشاعر تعريف المخاطب بالموصولية؛ لما في الصــلة مــن المعنى والسبب الذي جعله مستوجبا للنصح والتوجيه ، فضلا عن تمكن الشاعر من ذكر الصفات التي يحرص على إبرازها في هذا المخاطــب ، وما في صفة كلامه من الجهل بما يقول .

ولم يكن ليتاح ذلك للشاعر لو أنه سلك طريقا آخــر مــن طــرق التعريف غير الموصل ،وهذا يستلزم أن يكون المخاطب بهــذا النصــح على علم بمضمون جملة الصلة ، كونها وسيلة تعريفه ، وأنه المقصود بهذا النصح ، فيكون في التعريف بها زيادة تقرير للغرض المسوق لــه الكلام ، وهو: النصح بألا يقول المرء ــ إذا نطق ــ إلا فصلا من القول ــ وهو: الحق منه ــ أو عدلا ، وهو: مصدر، وصف به الشاعر النطق أو القول بدل اسم الفاعل مبالغة ، فكأنه يرى أن الموصوف وهو نطق

[1] ــ تفسير الكشاف للزمخشري ، ج : ١ ، ص : ١٢١ .

المرء وكلامُه ينبغي أن يكون نفسه عدلا ، وهو باب واسع يشمل كل المعاملات الكلامية ، كالشهادة ، والصلح بين المتخاصمين ، وذكر صفات المبيع وثمنه وغير ذلك من المعاملات التي تتم بواسطة الكلام .

ولإبراز هذا المعنى العقلي فقد صور الشاعر حال المخاطب الذي يسوِّغ له جهله بما يقول أن يجمع في كلامه بين الفصل والهزل ، والسوقي والجزل مُخَلِّطاً فيه لا يَتَفَقَّدُه ، بحال من يحتطب ليلا فهو يجمع الجيد والرديء و يقطع كل ما قدر عليه بلا نظر ولا فكر ، لأنه لا يبصر ما يجمع في حبله .

وهي من الصور الحسية التي تجعل حال المخاطب الذي لا يميز بين جيد الكلام ورديئه واضحة ظاهرة، بحيث يمكن لمن لديه أدني خبرة أن يحكم على أن ما جمعه الحاطب في حبله ليلا قد ذهبت قيمة الجزل منه بسبب اختلاطه بالدق الذي لا فائدة منه إلا أنه يخمد شبوب نار الجزل وتوقد جذوتها ، فضلا عن كونه قد جمعه ليلا ، وهو وقت لا يصلح لهذا العمل ، وكذلك كلام من يجمع بين الركيك الغث ، والبليغ الجزل .

جمال الصنعة ــ هنا ــ ومهارة التصوير لا يخفى أثرها على المتلقي قبولا النصح ، وعملا بالتوجيه ، لأنه انتقل به من العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع .

ومعلوم "أنّ أُنْس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مكنىٍّ، وأن تردَّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقُلها عن العقل إلى الإحساس وعما يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار

والطبع، لأن العلم المستفادَ من طرق الحواسِّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة، يفضلُ المستفاد من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخَبرُ كالمُعاينة، ولا الظنُّ كاليقين، فلهذا يحصل بهذا العِلم هذا الأُنْسُ أعني الأُنس من جهة الاستحكام والقوة" (١)

١ــ أسرار البلاغة للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ١٢١ ، ١٢٢ .

الخاتمة

بعد هذا التحليل والبحث في جماليات التشبيه عند معن بـــن أوس يمكن القول بالنتائج التالية :

ــ يمتلك الشاعر وعيا فنيا، وحسا مرهفا مكنه من تشكيل التشبيه تشكيلا جيدا ، وتوظيفه في خدمة الأفكار وإبراز المعاني .

ــ جاءت تشبيهاته مبدعة تمتاز باستقصاء أحوال المشبه، وهو ما دلل على وعي بحقائق الأشياء المحيطة به ، وعلم بأحوالها وصـــفاتها، وقد بدا هذا في تشبيهاته بصفة عامة وفي تشبيه"القدور" بصفة خاصة، حتى كأنه يمثلها عيانا للقارئ أو السامع .

ــ جاءت تشبيهات معن شاهدة علـــى براعتـــه فـــي القيـــاس ، واقتناص العلاقات بين أطراف التشبيه .

ــ شعر معن بن أوس ــ ثري بالصور المفعمة بالمشاعر والحيوية، مع أن عناصرة مستمدة من واقع الشاعر وبيئته .

ــ تمتاز تشبيهاته بالتفصيل والتحليل ، والاستقصاء ، بما ينبئ عن مهارة في إبراز المعاني بعد مراجعة النظر، وإدارة الفكر حتى تَمكُّنِه من إخراج صورة مفعمة بالحيوية والنشاط ، تشترك في إداركها الحـــواس، وتتعاون في تشكيلها عناصر الطبيعة

ــ خصوبة خياله، وسعة إدراكه،وقدرته على اســـتخدام العناصـــر المحيطة به في تشكيل الصور.

ـ قدم الشاعر صورا سمعية رائعة عبر تشبيه واقعي استمد عناصره المكونة له من واقعه الذي عاش فيه، فصار نافذة لمشاركة ذلك الواقع ، ومثالا للانسجام مع الموقف الذي يكون فيه ، وأنموذجا للاتساق النفسي الذي ينم عن الرضا الواقعي والتفاعل معه .

ـ سرت روح الجمود في بعض تشبيهات معن كما في تشبيه النساء بالدمى ، والنحر بفاثور اللجين وهي من الصور التي فاقه فيها حاتم الطائي بما أضافه إليها من زينة تمثلت في توقُّد الياقوت والشذر المنظَّم الذي يشبه جمر الغضا حين يتطاير منه الشرر في لطف عندما تداعبه أرواح الصبا .

ـ بدا من خلال تشبيهاته ما كان يتحلى به من الحلم والشرف ، والاستقامة ، والنأي عن مواطن الشك والتهمة ، كما علا فيها صوت الفضيلة، والأخلاق النبيلة متمثلة في الاستقامة ، والرضا ، والإيثار .

قائمة بأهم المصادر والمراجع

١ــ الأدب وفنونه دراسة ونقد ، د .عز الدين إسماعيل ،ص : ٧٩ : ٨٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٣٤ هـ ــ ٢٠١٣ م .

٢ ــ أسرار البلاغة للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، نشر دار المدني ، جدة ، السعودية ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١ م .

٣ ــ الأشباه والنظائر فى النمو جـ٤ ص ٧٩ للعلامة جلال الدين السيوطى ط١ ١٤٠٥هـ ١٩٨٤ دار الكتب العلمية بيروت، لبنان٠

٤ ــ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي المتوفى : ٧٤٩هـ ،شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر ، ج : ١ ، ص :١١٠ ، دار الفكر العربي ، الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م .

٥ ــ الخصائص لابن جني .

٦ ــ ديوان حاتم الطائي ، طبعة النادي الأدبي بحائل . المملكة العربية السعودية .

٧ ــ ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص:٦١ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر

٨ ــ ديوان الهذليين . القسم الثاني ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٩٥

٩ ــ شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد الحسن المرزوقي ، نشره أحمد أمين القسم الثالث الجزء الثاني ، الطبعة الثانية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م

١٠ ــ العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ ، ج: ٢ ، ص : ١٩٧ .

١١ ــ الكشاف للزمخشري

١٢ــ الكامل غي اللغة والأدب لأبي العباس المبرد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وسيد شحاتة ، دار نهضة مصر ، القاهرة .

١٣ ــ معن بن أوس . حياته . شعره أخباره جمعه : كمال مصطفى ، مطبعة النهضة بشارع عبدالعزيز . مصر ، الطبعة الأولى ١٩٢٧ م .

١٤ ــ المطول لسعد الدين التفتازاني

١٥ ــ مغنى اللبيب لابن هشام.

١٦ ــ النحو الوافي لعباس حسن ، المتوفى : ١٣٩٨هـ ، ج:١، ص : ٣٢٥ ،نشر : دار المعارف ،الطبعة : الطبعة الخامسة عشرة .

١٧ ــ نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد العربي الحديث ، د . محمد نايل ، ص : ٤٨ ، دار المنار ، ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩ م ، والصورة في الشعر العربي ختى آخر القرن الثاني الهجري ، د . علي البطل ، ص : ٣٠ ، دار الأندلس لبنان ، ١٩٨٣ م